صحيح أنّ طرابلس لم تُصبح عاصمة لبنان الثانية بإختيارها لكنّه صحيح أيضاً أنّ أهلَها تكيّفوا بالتدرّج مع لبننتها بل قبلوها وارتضوها. غير أنّ علاقة المدينة مع الدّولة اللبنانيّة ظلّت على قدر من الإزدواج. دخلت الدّولة في أنسجتها السياسيّة والإقتصاديّة والإجتماعيّة والثقافيّة وبالوقت نفسه شكت المدينة من تجاهل الدّولة لها وانحيازها ضدّها.

رُغم ذلك، جَرَت تحوّلات كثيرة في طرابلس خلال الفترة المسمّاة ليبراليّة في سوريا ولبنان، أي في العُقود القليلة التي تَلَت الإستقلال. واستمرّت خلال المرحلة التي سادت بها مجدّداً الأفكار القوميّة العربيّة وصولاً إلى بدايات الحروب اللبنانيّة والملبنَنة. والتحوّلات المذكورة جاءت في مُجمَلها، وثيقة الصّلة بلبنانيّة طرابلس ومدينيّتها.

ولأسباب شتى، متصلة بالتاريخ الذي صنع هذه المدينيّة الفريدة بين اقرانها في شرق المتوسط، اعادت نسج علاقاتها بأقضية لبنان الشمال والداخل السوري حتى مدينة حمص ولم تعرف تناقضا حادا بين الأصالة العربية والإسلامية وبين الحداثة ولم تتعارض على نحو ظاهر الأمانة للتقليد والتطلّع الى التجديد.

بعبارة أخرى، آلى تَطوّر المدينة في تاريخها الحديث، على صعد العمران والتربية والثّقافة والعلاقات الإجتماعيّة والنشاط الاقتصادي، الى تعزيز انفتاح طرابلس وقدرتها على الاغتناء بالتنوع. وفَدَ إليها الكثيرون وأقاموا فيها وصاروا جزءاً منها. واستطاعت المدينة أن تُحسن إستقبالهم وتيسّر إنخراطهم في حيواتها حتّى باتوا يشعرون أنّها مدينتهم ويتعاملون معها ومع أولادها بدفع هذا الإحساس. واتيح لي في مدرستي وفي الحي الذي عشت فيه منذ ولادتي ان الاحظ قلة انشغال الطرابلسيين بمعرفة "أصل" الوافدين وتذكيرهم، او لا سمح الله تعييرهم، به. وكأن التمييز بين أولاد المدينة الضاربة جذورهم في تاريخها والمنتمين اليها حديثا ليس ذا شأن عظيم.

وأفادت طرابلس من مساهمة هؤلاء "الطرابلسيين الجدد" في المجالات المختلفة وحاذرَت الوقوع في نزعة البيئات التقليدية المنغلقة نحو الإنكفاء أو التوجّس من الوافدين أو القطيعة معهم بوصفهم آخراً مختلفاً، في الدّين والعادات والثقافة. واتّسمت حيَويّة المدينة بالقدرة على المواءمة بين تأكيد هويتها، ومعه بعض الميل الى روحية المحافظة، وبين الجسارة في الإقتباس والإستيعاب.

واليوم، ما زال الكثيرون يحنّون إلى زمن طرابلس في تحوّلاتها اللافتة، ويعبّرون عن ذلك بطرق مختلفة ليست الكتابات الأدبيّة أقلّها. حسبيَ أن أشيرَ إلى ثلاثيّة خالد زيادة وهي من نوع أدبي فريد، يجمع من التّاريخ والأنتروبولوجية في كتابة سيرة المكان ومرآة العلاقات الإنسانيّة الجديدة وإلى كتاب خضر حلوي عن شارع

الكنائس، وهو شهادة شخصيّة عن التنوّع في طرابلس وتبادل طرائق العَيش والمشاعر وكتاب جبّور دويهي عن حارة الأميركان الذي في حديثه عن الحاضر الذي يأخذ خيالنا بإتّجاه الماضي.

غني عن القول ان كل ذلك تغيّر تدريجيا منذ منتصف السبعينيات من القرن الماضي، وصرنا نتذكر ونستعين بالذاكرة على بؤس الحاضر، لا في طرابلس فحسب، بل في لبنان كله.

طارق متري